المحاضرة الحادية عشر : نظرية الحتمية القيمية

مقدمة:

في ظل تطور ابستمولوجيا علوم الاعلام والاتصال في سياق مختلف وضمن أفكار غربية، بدا واضحا أن التنظير العربي للظاهرة للاتصالية والاعلامية تحتاج الكثير من البنى المنهجية للتأسيس إلى فكر يتمحور حول حقل الاعلام والاتصال من السياقات المجتمعية العربية، ولو تطرقنا للمساهمات العربية في هذا الشأن سنجد أنها اقتصرت على محاولات إسقاط النظريات الغربية على خصوصية المجتمع المحلي، أو في إعادة قراءة التراث فيما يسمى "بالإعلام الإسلامي". ولعل الاستثناء قد جاء في فر الباحث الجزائري "عبد الرحمن عزي" ليحرّك المياه الراكدة في نهر الأبحاث العربية في مجال الاتصال، بمجموعة من الدراسات العلمية الرصينة والأصيلة والمترابطة. أما الرابط بينها فهي أنها كانت تستند إلى متغير رئيسي واحد هي القيم والذي انتهى بانتج نظرية جديدة في علوم الإعلام والاتصال هي: "نظرية الحتمية القيمية في الإعلام".

1 عزي عبد الرحمان:

نال المفكر الجزائري عبد الرحمن عزي على شهادة الليسانس في الصحافة من جامعة الجزائر عام (1977) وعلى شهادة الماجستير في الصحافة عام (1980) وكانت شهادة الدكتوراه في سوسيولوجيا الإعلام باكورة اعمال عزي عام(1985) من جامعة نورث تكساس بأمريكا. وقبل ذلك، عمل الأستاذ محررا (تغطية الأخبار المحلية) في جريدة "الشعب" اليومية (الجزائر) لمدة سنتين. و تتجاوز خبرته في التدريس و البحث و الإشراف 24 سنة إذ عمل كمدرس لمدة 3 سنوات في جامعة نورث تكساس ، ثم كأستاذ مساعد فأستاذ مشارك فأستاذ لمدة 11 سنة بمعهد علوم الإعلام و الاتصال، جامعة الجزائر ثم كأستاذ لمدة 3 سنوات بقسم الاتصال بالجامعة العالمية الإسلامية ماليزيا ثم كأستاذ بقسم الإعلام بجامعة الملك سعود لمدة 4 سنوات، أستاذ بقسم الاتصال الجماهيري بجامعة الإمارات العربية المتحدة لمدة 4 سنوات، ثم أستاذ بكلية الاتصال، جامعة الشارقة منذ 2006.

2 التسييج التاريخي للحتمية القيمية في الإعلام وأهم مرتكزاتها:

رغم أن جل دراساته –منذ أول دراسة كتبها عندما عاد إلى الجزائر عام 1985م– انطلقت من بعده الحضاري، إلا أن عبد الرحمن عزي صرّح أنه بدأ فعليا تحديد مسار نظريته بتقديم النظرية الاجتماعية الغربية الحديثة وتكييفها مع الواقع الجديد وعلاقاتها بالاتصال، في كتابه: "الفكر الاجتماعي المعاصر والظاهرة الإعلامية الاتصالية: بعض الأبعاد الحضارية". أما عن تسميتها بـ: "نظرية الحتمية القيمية في الإعلام فيعود الفضل في ذلك إلى طالبه وزميله الآن في جامعة الشارقة الأستاذ الدكتور نصير بوعلي. وذلك من تجسيد التباين مع الحتمية التكنولوجية لمارشال ماكلوهان في دراسة مهمة قام خلالها بمقارنة قيمة بين النظريتين. كما يمكن الحديث عن أنموذج عبد الرحمن عزّي، على غرار أنموذج لاسويل، أنموذج شانون وويفر، أنموذج شرام، أنموذج هايدر، أنموذج التنافر المعرفي لـ ليون فستنجر، فأنموذج عبد الرحمن عزّي يتألّف من سبعة عناصر مركّبة ومتداخلة بنيويا وهي: المرسل، الرسالة، الوسيلة، المتلقي، الأثر، النظام الاجتماعي والبعد الحضاري القيمي.

ولقراءة النظرية وفهمها فهما صحيحا قدم نصير بوعلي في إحدى دراساته* ما اصطلح عليه "بمفاتيح النظرية" ، وتتمثل هذه المفاتيح استنادا إلى المقاربة البنيوية في:

1– إن نظرية الحتمية القيمية في الإعلام كبنية تتضمن عناصر البناء التالية:

أ– علوم الإعلام والاتصال كمادة خام.

ب– الفكر الاجتماعي المعاصر في القرن العشرين كمادة مستوردة.

ج– التراث العربي الإسلامي على سبيل الاجتهاد والتجاسر وليس النقل كمادة محلية.

د– القرآن الكريم بمثابة الاسمنت الذي يمسك النظرية بإحكام.

2- أسبقية الكل على الجزء في النظرية : فنظرية الحتمية القيمية في الإعلام هي ذلك الكل المركب من دراسات وأبحاث نظرية عبد الرحمن عزي، ويستحيل فهمها ما لم يكن هناك إلمام بعدد معتبر من دراساته التي تزيد عن خمسين دراسة تنطلق كلها تقريبا من إشكالية واحدة هي كيفية فهم الظاهرة الاتصالية والإعلامية فهما قيميا وحضاريا.

3- أسبقية العلاقة على الأجزاء أو القيمة المحددة لها: تتضح هذه النظرية أكثر عند إمعاننا النظر في العلاقة التي تحكم دراسات عزي عبد الرحمن، لأن ذلك سيقود إلى التغلغل في الدواخل وتوليد المعاني العميقة للنظرية(...) وتعتبر القيمة هي الحلقة أو العلاقة بنيويا التي تمسك أبحاث المفكر وتجعلها مساقط لا تتحرك إلا ضمن دائرة النظرية.

4- إن عناصر نظرية الحتمية القيمية لا تحمل أي معنى إلا في إطار السياق العام؛ أي يجب استحضار العوامل الاجتماعية والثقافية والحضارية والتاريخية التي ساعدت على تبلور هذه النظرية.

3 افتراضات وركائز النظرية:

تنطلق النظرية من افتراض أساس يعتبر الإعلام رسالة وأهم معيار في تقييم الرسالة هو القيمة التي تنبع أساسا من المعتقد. ولذلك فإن تأثير وسائل الإعلام يكون إيجابيا إذا كانت محتوياتها وثيقة الصلة بالقيم، وكلما كانت الوثائق أشد كان التأثير إيجابيا. وبالمقابل، يكون التأثير سلبيا إذا كانت المحتويات لا تتقيد بأية قيمة أو تتناقض مع القيمة، وكلما كان الابتعاد عن القيمة أكبر كان التأثير السلبي أكثر. ويعتبر مفهوم السالب والموجب من بين المفاهيم الجديدة التي قدمها عبد الرحمن عزي بالإضافة إلى المخيال الإعلامي (في مقابل الرأي العام)، والزمن الإعلامي، والرأسمال الإعلامي الرمزي، والوضع و الخيال "والتمعقل" (من استخدام العقل) وفعل السمع والبصر، والبنية القيمية وغيرها. وهي بمثابة مباحث فرعية يرتكز عليها النسق الكلي وهو النظرية.

أما أهم الركائز –المبدئية– التي تقوم عليها النظرية فتتمثل حسب عبد الرحمن عزي في :

- أن يكون الاتصال نابعا ومنبثقا من الأبعاد الثقافية الحضارية التي ينتمي إليها المجتمع.
- أن يكون الاتصال تكامليا؛ فيتضمن الاتصال السمعي البصري، والمكتوب والشفوي الشخصي، مع التركيز على المكتوب لأنه من أسس قيام الحضارات.
- أن يكون الاتصال قائما على مشاركة واعية من طرف الجمهور المستقبل لا أن يكون أحاديا متسلطا.
- أن يكون الاتصال دائما حاملا للقيم الثقافية والروحية التي تدفع الإنسان والمجتمع إلى الارتقاء والسمو.

4 بين الحتمية القيمية والإعلام الإسلامي

تجدر الإشارة إلى أن نظرية الحتمية القيمية في الإعلام ليست هي ما اصطلح على تسميته "نظرية الإعلام الإسلامي" حيث يرى عبد الرحمن عزي في معرض إجابته عن أحد الأسئلة الموجهة إليه على الموقع الالكتروني الخاص به أن الفرق بين الاتجاهين يكمن:

أولا/ في المنهجية، فالإعلام الإسلامي يقوم على سرد النصوص بذاتها دون إتباع منهجية محددة في قراءة النص أو ربطه بواقع الظاهرة الإعلامية المعاصرة، وكان ذلك عاملا في وصول هذا الطرح إلى طريق شبه مسدود، حيث لم ينتج نصا معرفيا بارزا، وإنما توقف عند باب الوعي بالمشكلة. أما الحتمية القيمية في الإعلام فتوظف عدد من الأدوات المنهجية التي ولدتها النظريات الاجتماعية والاتصالية الحديثة في الغرب، فهي تسعى إلى التجديد في قراءة النصوص وربط ذلك بواقع الظاهرة الإعلامية القائمة في المنطقة العربية والإسلامية.

ثانيا/ أن تقليد الإعلام الإسلامي يكاد يقصي التجربة الغربية (الأكاديمية أو الممارسة في الميدان)، أما الحتمية القيمية فهي تتفاعل مع المعرفة الإعلامية الغربية بشقيها وتحاول أن تطرح نفسها بوصفها صوت آخر يتعايش وينافس النظريات القائمة؛ أي أنها تسعى إلى تجاوز صفة المحلية إلى إيجاد مكان لها في التراث المعرفي الأكاديمي السائد لدينا وفي الغرب.